البعد الدينى فى نظرية وحدة البحر المتوسط لهنرى بريين (ت.١٩٣٥م)

د. إيمان عبد التواب خلاوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ

كلية الآداب، جامعة دمنهور

البعد الدينى فى نظرية "وحدة البحر المتوسط لهنرى بريين" (ت.١٩٣٥م)

إيمان عبد التواب خلاوى
مدرس تاريخ وحضارة العصور الوسطى- قسم التاريخ- كلية الآداب – جامعة دمنهور– مصر.
البريد الإلكتروني: eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

الملخص : تعد نظرية "وحدة البحر المتوسط" إشكالية وجدت من يبرزها ويروجها فى هيئة نظرية تاريخية فلسفية ، بفضل صاحبها المؤرخ البلجيكى هنرى بريين Henry Pirenne (١٨٦٢– ١٩٣٥م) الذى تناولها فى مؤلفاته مثل: "مدن العصور الوسطى" وكذلك فى كتابه "شارلمان ومحمد" ؛ فتم وضعها فى إطار فكر استعمارى لمؤرخ فى العصور الوسطى فكانت نظرية "وحدة البحر المتوسط" بصبغتها الإقتصادية والتجارية، واتهامها للمسلمين بكسر وحدة البحر المتوسط حينما تمكن المسلمون من العبور إلى شمال أفريقيا ومنها إلى الأندلس، فأصبح البحر المتوسط منقسماً إلى شقين شمال مسيحى وجنوب اسلامى، وانتهى التجمع "الكومنولث" العائلى الذى جمع شعوب حوض البحر المتوسط ، وبدلاً من أن يكون البحر المتوسط بحيرة رومانية أصبح بحيرة إسلامية ، وبدلاً من توحيد شرق وغرب أوروبا أصبح شمال مسيحى وجنوب مسلم .

أصبحت تلك النظرية موضع جدال بين مؤيد يعتبرها "وصية تاريخية" ذات بعد استراتيجى فى تشكيل وجهة نظر الغرب المسيحى تجاه الشرق الإسلامى . أما الجانب المعارض فيصفها بأنها "النظرية الكارثية" الغارقة فى الفرضيات الجدلية ، بيد أن هناك جانباً دينياً تغاضى المؤرخون عن دراستة بالشكل الكافى حتى لا يتهمهم الغرب بالانحياز لمناصرة التاريخ والحضارة الاسلامية ، رغم أنه تم إحياء تلك النظرية من جديد فى دوائر الإعلاميين والأكاديميين فى الغرب لتشويه صورة الإسلام ، وجعل تلك النظرية أحد فصول نظرية "صدام الحضارات" .

الكلمات المفتاحية : البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، هنرى بريين ، البحر المتوسط فى العصور الوسطى

The Religious Dimension of the Theory of the Historian

Henri Pierenne(d.1935) " The Mediterranean Unity"

Iman Abd el Tawab Khalawy Hassanin
Assist. Prof. of Medieval History - Department of History - Faculty of Arts - Damanhour University- Egypt.
Email: eman.khalawi@art.dmu.edu.eg

Abstract : The Theory of "The Unity of The Mediterranean" is a problem that found its advocate and propagation in a historical and philosophical form, thanks to its author, the Belgian historian Henri Pierenne (1862-1935 AD) who dealt with it in his books such as: "Medieval Cities" as well as in his book "Charlemagne and Muhammad"; he composed it in the context of colonial thought by a medieval historian, so the theory of the "unity of the Mediterranean" was in its economic and commercial nature And accusing the Muslims of breaking the unity of the Mediterranean when the Muslims crossed to North Africa and from there to Andalusia, then the Mediterranean became divided into two parts, north for Christians and south for Muslims, thus invasion ending the family of the Commonwealth that gathered peoples of the Mediterranean basin, and instead of the Mediterranean being a Roman lake, it became an Islamic lake. & Instead of unifying eastern and western Europe, it became a Christian north and a Muslim south.

This theory has become subject of controversy among supporters who consider it a "historical will" with a strategic dimension in shaping the Christian West's view of the Islamic East. As for the other side, he describes it as a "catastrophic theory", However there is a religious aspect that historians have neglected to study sufficiently so that the West does not accuse them of bias towards Islamic history civilization, although that theory was revived again in circles of media Politicians , and academics in the West to distort the image Islam, and making that theory one of the chapters of the "Clash of Civilizations Theory".

Keywords : Medieval Mediterranean , Henri Pierenne , The Mediterranean Unity ,

البحر المتوسط هو ملك البحار وميزان القوي لأي إمبراطورية سادت العالم عبر التاريخ كلما أحكمت قبضتها عليه كان ذلك يعني القوة والسيطرة بشهادة جيرانها ، وهو ما جعل مفكراً مثل جمال حمدان يتناول تلك الفكرة ويصيغها فى إطار فكرة الصراع بين البر والبحر ويردد بأن الرومان كانوا يفاخرون العالم بأنهم جعلوا منه بحراً مغلقاً أشبه ما يكون نواه للإمبراطورية الرومانية فوصل بفكرة وحدة البحر المتوسط إلى منتهاها[١] من المسئول عن تدمير وحدة البحر المتوسط بحيث أصبح شمالاً مسيحياً وجنوباً مسلماً ؟

فى الحقيقة إن إجابة بعض المؤرخين الغربيين على هذا السؤال كانت صادمة حينما وجهوا الاتهام للعرب والمسلمين بدءاً من حركة الفتوح الإسلامية حينما تحول البحر المتوسط إلى جنوب مسلم وشمال مسيحي ؛ علي اعتبار أن البحر المتوسط كان بحراً للروم قبل أن يخطو العرب بأقدامهم على أرض الشمال الأفريقي أو الأندلس، وأن الإمبراطورية الرومانية بعد

[١] يرى المفكر الجغرافى أن الصراع عبر التاريخ أخذ عدة أشكال وهى : "صراع الرمل والطين" وتعد الحضارة الفرعونية والهجرات الكنعانية والآرامية أبرز نماذجه ، وكذلك "صراع الاستبس والغابة" وقد أخذ شكل هجرات رعوية قبلية مثل قبائل الهكسوس فى التاريخ القديم أو هجرات القبائل الجرمانية إلى أوروبا فى مطلع العصور الوسطى، وهناك "صراع الجبل والسهل" حينما نزل رعاة الجبال إلى السهول مثل العيلاميين والأرمن والأشوريين والحيثيين الذين نزولوا من جبال الأناضول ، غير أن اكثر الصراعات قوة على المستوى الإنسانى والحضارى هو "صراع البر والبحر" الذى كان بطله الفلاح والملاح وهو ما تجلى فى حضارة اليونان والرومان ، ويعد أكبر مثال للدلالة على تفوق البحر على البر ما تجلى فى الحضارة الرومانية التى جعلت من البحر المتوسط بحر الروم أو ما عرفه الرومان أنفسهم بقولهم "بحرنا". انظر :
جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ١٣ – ١٤ ، ١٨– ٢٠ .

انتصارها على القرطاجيين فى الحروب البونية.٣[٢] استطاعت أن تفرض سيطرتها علي البحر المتوسط وتحقق وحدة سياسية على كامل البحر المتوسط والشعوب المطلة عليه ، لدرجة أن مصطلح البحر المتوسط أصبح يرادفه فى اللغة اللاتينية Mare nostrum وتعنى "بحرنا" [٣].

ظهور نظرية هنرى بريين حول وحدة البحر المتوسط

يعد إنهيار وحدة البحر المتوسط إشكالية وجدت من يبرزها ويروجها فى هيئة نظرية تاريخية فلسفية ، ارتبطت بتاريخ وحضارة العصور الوسطى بفضل المؤرخ البلجيكى هنرى بريين Henry Pirenne (١٨٦٢-

---

[٢] الحروب البونية هى ثلاث حروب خاضتها روما وقرطاج من أجل التنافس والسيادة البحرية على غرب البحر المتوسط ، وقد مرت بثلاثة مراحل هى : الحرب الأولى وكانت بسبب التنافس على جزيرة صقلية وانتهت بإنتصار روما على قرطاجة عام ٢٤١ ق.م ، أما الحرب الثانية فقد وقعت بسبب قيام الملك القرطاجى هملكار برقة بإحتلال شبه الجزيرة الأيبيرية مخالفا شر الهدنة مع روما ؛ فتجدد القتال مرة أخرى فى الحرب البونية الثانية تحت قيادة هنيبعل ابن هملكار برقة ، وقد عبر هنيبعل جبال الألب وزحف نحو إيطاليا بغرض احتلال روما وكاد أن ينجح فى مسعاه لولا اضطرار هنيبعل للعودة إلى قرطاجة لوفاة شقيقه بعد أن تغيرت دفة الحرب ضد قرطاج ، أما الحرب الثالثة فقد بدأت حينما شعرت روما بحتمية القضاء على قرطاجة التى كادت تحتل روما وانتهزت فرصة حدوث نزاع بين قرطاجة وملك نوميديا–الجزائر حاليا– وزحفت بأسطولها على قرطاجة بحجة دعم حليفها ملك نوميديا ، لكون هنيبعل قد خرق شروط الهدنة مع روما ، وتم هزيمة قرطاجة لدرجة أن الجيش الرومانى قام بحرث أرضها بالملح لتبويرها انتقاماً من قرطاجة التى تم القضاء عليها ليصبح البحر المتوسط بحر الروم لبضع قرون . انظر:
Nigel Bagnall: The Punic Wars "Rome, Carthage and the Struggle for the Mediterranean" , first published , Random House, London, 1999 , pp. 111, 142- 143 , 323-326 , 334-335.

(٣) David Abulafia: The Great Sea "A Human History of the Mediterranean" , Oxford University Press, first edition ,Oxford , New York , 2011, p. 199; Zachary Anderson: The Rise of the Roman Empire, Cavendish Square Publishing, LLC, first edition , New York, 2016 , pp. 43 , 148.

١٩٣٥م)[٤] حينما وضع أسس نظرية "انهيار وحدة البحر المتوسط على يد المسلمين" فى مؤلفاته مثل: "مدن العصور الوسطى" وكذلك فى كتابه "شارلمان ومحمد"؛ فتم وضعها فى إطار فكر استعمارى لمؤرخ فى العصور الوسطى فكانت نظرية "وحدة البحر المتوسط" بصبغتها الإقتصادية والتجارية، واتهامها للمسلمين بكسر وحدة البحر المتوسط حينما تمكن المسلمون من العبور إلى شمال أفريقيا ومنها إلى الأندلس، فأصبح البحر المتوسط منقسماً

---

[٤] هنرى بريين مؤرخ بلجيكى تخصص فى تاريخ العصور الوسطى درس فى جامعة ليج Liège فى الإقليم الفرنسى فى بلجيكا ثم أصبح استاذاً فى التاريخ فى جامعة جنت Ghent عام ١٨٨٦م حتى نهاية حياته المهنية عام ١٩٣٠م ، شغل منصب رئيس الجامعة منذ عام ١٩١٨م حتى ١٩٢١م ، وحينما احتلت ألمانيا بلجيكا أثناء الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤م انخرط هنرى بريين فى المقاومة البلجيكية ضد ألمانيا فتم اعتقاله وسجنه كما فقد أحد أبنائه ويدعى بيير أثناء عمليات المقاومة ضد = = ألمانيا، وبلغ من كراهيته لها أن أحد الضباط الألمان كان يحقق معه ولكن هنرى أصر على الحديث باللغة الفرنسية وحينما سأله المحقق لماذا لا يتحدث باللغة الألمانية رغم معرفته لها أجاب :" لقد نسيت اللغة الألمانية منذ ٣ أغسطس ١٩١٤م" وهو تاريخ احتلال الألمان لبلاده ، وفى فترة أسره تعلم اللغة الروسية من أحد الأسرى الروس فى المعتقل ، وفى فترة اعتقاله كتب مؤلفه عن تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى وهو فى محبسه مقدما رؤيته فى التاريخ السياسى والإجتماعى والاقتصادى ، كما كتب اهم الآراء التى وردت فى أطروحته وهو فى محبسه مستنداً على ذاكرته فقط دون المراجع أو المصادر اللازمة ، وبعد خروجه من السجن قام بنشرها على هيئة ورقات بحثية فى الفترة من ١٩٢٢-١٩٢٣م ، وقضى بقية عمره يكتب ويقدم الأدلة والأسانيد الداعمة لأفكاره وآرائه ثم فى كتابه " محمد وشارلمان" الذى نشر عام ١٩٣٧م أى بعد وفاته على يد ابنه جاك بريين والذى كان يعمل مؤرخاً كوالده . أنظر:

Henri Pirenne: Mohammed and Charlemagne, trans. from French by Bernard Miall, first Published , George Allen & Unwin LTD, London , 1939,pp.9 – 13;

سامى خشبة : مفكرون من عصرنا ، المكتبة الأكاديمية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ٢٥٦- ٢٥٧.

إلى شقين شمال مسيحى وجنوب اسلامى، فانكسرت بذلك حلقة التواصل التجارى والحضارى بين الغرب الأوروبي وبين الشرق عامة بقسميه الأقصى والأدنى، وانتهى التجمع "الكومنولث" العائلى الذى جمع شعوب حوض البحر المتوسط ، وتم استبدال عبادة المسيح بعبادة محمد (فى خطأ ينم عن جهل بطبيعة الدين أو ربما سوء نية متعمد) والتشريعات الرومانية بالتشريعات الإسلامية كما تم استبدال اللغة العربية لتحل محل اللاتينية واليونانية وبدلاً من أن يكون البحر المتوسط بحيرة رومانية أصبح بحيرة إسلامية، وبدلاً من توحيد شرق وغرب أوروبا أصبح شمال مسيحى وجنوب مسلم" [٥] .

أصبحت تلك النظرية موضع العديد من الانتقادات والتجريح ، وفى نفس الوقت موضعاً للدعم والتأييد لدى البعض فى مجال دراسات تاريخ وحضارة العصور الوسطى، فالجانب المؤيد لنظرية وحدة البحر المتوسط يعتبرها "وصية تاريخية" ذات بعد استراتيجى فى تشكيل وجهة نظر الغرب المسيحى تجاه الشرق الإسلامى . أما الجانب المعارض فيصفها بأنها "النظرية الكارثية" الغارقة فى الفرضيات الجدلية التى تفتقد إلى أبسط قواعد المنهج التاريخى، وهو ما أغرى بعض المؤرخين لنقد وتشريح النظرية من جانبها الإقتصادى لكون صاحبها هنرى بريين عرضها فى غلاف اقتصادى كمتخصص فى تاريخ وحضارة العصور الوسطى مصوراً الأمر وكأنه ذو بعد اقتصادى نتج عنه غلق البحر المتوسط وجعل الدولة الكارولنجية منغلقة على نفسها مضطرة إلى الاعتماد على مواردها الفقيرة لسد العجز الذى تسببت فيه حركة الفتوح الإسلامية [٦].

---

[٥] Henri Pirenne: Medieval Cities "Their Origins and the Revival of Trade" , Trans. by Frank D. Halsey, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1925 , pp. 24- 25 ; Norman. Baynes : M. Pirenne and The Unity of The Mediterranean World in The Pirenne Thesis Analysis, Criticism, and Revision, ed. Alfred Havighurst , D.C. Heath &company, Boston, 1958, p. 54.

[٦] Henri Pirenne: Medieval Cities , p. 26.

بيد أن هناك جانباً أكثر خطورة فى نظرية "وحدة البحر المتوسط" آلا وهو الجانب الدينى الذى تغاضى المؤرخون عن دراستة من المنظور الدينى بالشكل الكافى حتى لا يتهمهم الغرب بالانحياز الدينى أو الميل العاطفى لمناصرة التاريخ والحضارة الاسلامية لبنى جلدتهم واكتفوا بصبغتها الإقتصادية رغم أنه تم إحياؤها من جديد فى دوائر الإعلاميين والأكاديميين فى الغرب لتشويه صورة الإسلام[٧] وجعل تلك النظرية أحد فصول نظرية "صدام الحضارات" . ومن هنا رأت الباحثة ضرورة استكمال دراسة تلك النظرية مع التأكيد على أن النطاق الجغرافى للبحر المتوسط يقصد به البلاد المطلة على حوضه [٨].

ولأن الغرب الأوروبي بما يضمه من عناصر جرمانية هو الوريث الشرعي لأملاك الإمبراطورية الرومانية بعد أن سقطت تحت أقدام البرابرة الذين أسقطوا روما ٤٧٦م علي يد أودواكر Odoace [٩] فأصبح يحمل لقب

---

[٧] فلاح حسن الأسدى : الإسلام وتكوين الغرب الأوروبى فى العصر الوسيط "نقد نظرية هنرى برين" ، مجلة كلية الآداب ، العدد ٧١ ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥م ، ص ٣٨٥-٣٨٨ .

[٨] كان هناك ارهاصات لدى الباحثة لتناول تلك النظرية فى مقال عام لا يتجاوز الصفحتين قامت بكتابته تحت عنوان "وحدة البحر المتوسط بين المسلمين وأوروبا "، مجلة أريف الأرمينية ، عدد رقم (٦) ، السنة التاسعة ، يونيو ٢٠٠٦م . وحتى لا يتم اعادة اقتباس الأفكار سواء للباحثة أو لغيرها فضلت تناول البعد الدينى فى ثنايا نظرية وحدة البحر المتوسط ، وهو جانب لا يقل خطورة عن الجانب الاقتصادى الذى تعمد هنرى بريين اظهاره دون غيره ، برغم أن المتأمل لنظريته يدرك أن المؤرخ حينما سطر نظريته منذ ما يزيد عن تسعين عاما قدمها فى هيئة اقتصادية اختلطت عمداً بصبغة دينية .

[٩] أودوأكر بربرى جرمانى الأصل من قبيلة الهيرول ، خدم الإمبراطورية الرومانية كجندى ورجل دولة ، إلى أن سنحت له الفرصة عام ٤٧٦م وقام بعزل الإمبراطور الرومانى فى الغرب رومولوس أغسطولوس Romulus Augustulus وكان طفلاً ، وأعلن أودواكر نفسه ملكاً على إيطاليا ، كما أرسل شارات الحكم إلى الإمبراطور البيزنطى زينون فى

ملك إيطاليا (٤٧٦- ٤٩٣م)[١٠] . ليكونوا بذلك قد وضعوا النهاية لتاريخ الإمبراطورية الرومانية وبالتالي نهاية لسيطرة روما علي البحر المتوسط ؛ الأمر الذي يجعلنا نتساءل هل كانت روما تستطيع الحفاظ علي وحدة البحر المتوسط دون جيش ولو ليوم واحد ؟ هل مصطلح بحر الروم يدل علي وحدة من وجهة النظر السياسية أي وحدة قائمة علي أساس اللغة والدين والجغرافية أو حتى القومية؟ وللإجابة علي هذه الأسئلة نتعمق في التاريخ محاولين أن نحلل أفكاراً حمل راياتها مؤرخو الغرب والمعجبون بالحضارة الكلاسيكية (سواء اليونانية أو الرومانية) ويجيب الباحث عنها فى طيات البحث .

وحدة البحر المتوسط بين عبادة الإمبراطور وعبادة المسيح

لقد اتفق مع هنرى بريين كثير من المؤرخين فى رؤيته لدور الإمبراطورية الرومانية فى تحقيق وحدة البحر المتوسط حينما أكد المؤرخ دليزلى بيرنز Delisle Burns (١٨٧٩- ١٩٤٢م) أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن يوماً أوروبية أو حتى غرب أوروبية بل كانت دوما توحد بلاد شرق المتوسط الغنية بثرواتها مع بلاد الغرب الأوروبي الأقل تقدماً مثل شمال بلاد الغال وبريطانيا ، ولهذا نشأت فكرة سيطرة الإمبراطورية الرومانية على طرق التجارة فى حوض البحر المتوسط سواء البرية أو البحرية بعد أن ورثوا

الشرق ، وكان الإمبراطور زينون يتظاهر بدعمه بينما حرض علية ثيودريك قائد القوط الشرقيين لمحاربته ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة بين ثيودوريك وأودوأكر لتقاسم الحكم بينهما إلى أن قام ثيودريك بقتل أودوأكر غدراً بالسيف أثناءتناولهما الطعام .انظر:
Peter Crawford: Roman Emperor Zeno "The Perils of Power Politics in Fifth -century Constantinople" , first published , pen &sword Ltd. Yorkshire , 2019, pp.210 – 213 , 216- 218 .

[١٠]Jordanes : The Gothic History of Jordanes, Entroduction & Commentary by Charles Christopher , Princeton Universty Press, Princeton , London , 1915 , p.119 ; Evagrius Scholasticus : The Ecclesiastical History of Evagrius " History of The Church from AD 431 to AD 594, Edited and trans. by Edward Walford , Published by H.G. Bohn , London, 1854, p.365 .

ممتلكات الإغريق والبطالمة فى مصر والشرق الأدنى بوجه عام[١١]. ونلاحظ هنا أن الإمبراطورية الرومانية فى سعيها للسيطرة على حوض البحر المتوسط لم تفرق بين الوحدة القائمة علي رغبة الشعوب الخاضعة لها أو الوحدة القائمة على القهر واستنزاف موارد وخيرات شعوب حوض البحر المتوسط الأخرى لصالح شعب واحد هو الشعب الروماني لأنها كانت نظرة مستعمر منتصر مزهو بقوته تلاعب بالشعوب عن طريق خلق عدو وهمي تنشغل به (سياسة فرق تسد) وإن لم يتواجد عدو كان هناك ضرائب يتفنن في ابتكارها الرومان ليفرضوها حتى علي الأموات .

من هنا ظهرت قوة الوحدة عن طريق الدين فى بلاد حوض البحر المتوسط سواء بعبادة الإمبراطور The Imperial cult أو عبادة المسيح The Christian cult التي لم تكن غاية في حد ذاتها وإنما هي وسيلة لخلق ولاء لرمز الإمبراطورية الرومانية وهو الإمبراطور المؤله [١٢] ونستخلص من ذلك تبنى أباطرة روما لفكرة أنه يمكن أن تثور علي حاكم ولكن لا يمكن أن تثور علي إله ؛ فحينما جاءت الديانة المسيحية وانشقت الشعوب المقهورة علي الوثنية اعتبرت الديانة المسيحية واعتناقها أحد سبل الخلاص أو لنقل أحد صور المقاومة والتمرد علي إمبراطورية كانت تتداعى من أركانها، ولهذا كان علي الإمبراطور الروماني أن يقبل النزول من مرتبة الإله إلي مرتبة خادم الإله وحاكمه على الأرض طالما أن ذلك سيضمن ولاء الشعوب، وولاء الجندي الذي كان يتهرب من الخدمة في الجيش الروماني حتى لا يخدم في جيش وثني لإمبراطور وثني، ولما كانت كفة الموارد الاقتصادية والدينية تميل إلى الشرق الذى انتشرت فيه المسيحية التى أصبحت إحدى صور المقاومة

[١١] Delisle Burns : The First Europe, in The Pirenne Thesis Analysis, Criticism, and Revision, ed. Alfred Havighurst , D.C. Heath &company, Boston, 1958, pp. 1-2 .

[١٢] Allen Brent: The Imperial Cult and the Development of Church Order, Brill , Leiden , Boston, pp. 4 , 7 ; Gwynaeth McIntyre : The Imperial cult , Brill , Leiden , Boston, 2019, pp. 75-76.

السلمية للإمبراطورية الرومانية خاصة بعد فشل سياسة الاضطهاد التى كانت ذروتها فى حكم دقلديانوس الذى عرف بـ "عصر الشهداء" وهو ما أدركه الإمبراطور قسطنطين الكبير(٣٠٦-٣٣٧ م) حينما اعترف بالديانة المسيحية [١٣] فأطلق عليه البعض"الحوارى الثالث عشر" .

كانت العقبة الكبرى التى واجهت قنسطنطين هى كيف تتحول المسيحية بمذاهبها المتصارعة إلى مصدر للفرقة لا لوحدة الإمبراطورية بعامة وللبحر المتوسط بخاصة ؛ بمعنى أنه إذا ما ألقينا نظرة على التوزيع الجغرافى للصراعات الدينية فى حوض البحر المتوسط فهناك صراع المسيحية والوثنية فى شمال غرب البحر المتوسط – واغلبه فى الغرب الأوروبى وقبائله الجرمانية- ، وهناك صراع أريوس Arius (٢٥٦-٣٣٦م) وأثناسيوس Athanasius (٢٩٦- ٣٧٣م) [١٤] حول طبيعة السيد المسيح فى شرق

---

[١٣]Socrates Scholasticus : The Ecclesiastical History of Socrates , Trans. & notes by Valesius , Henry G. Bohn , London, 1853 , pp.3-4 .

[١٤] ظهر الصراع حول طبيعة السيد المسيح والثالوث المقدس أو الأقانيم الثلاثة " الآب، والإبن، والروح القدس" وهل المسيح إله أم بشر ، حينما تناول الأسقف آريوس القضية مردداً إذا كان المسيح ابن الله فلابد أن يكون أقل منه شأناً ، وإذا كان الخلود هو صفة الآب الذى لا أول ولا آخر له ، فإن المسيح له بداية وبالتالى لا يعد إلها ولا يساوى الآب فى جوهره ؛ بمعنى ان السيد المسيح هو على مسافة وسط بين الله الخالق وبين الإنسان الذى هو مخلوق، فرد عليه الأسقف اثناسيوس (والذي سيصبح بطريارك كنيسة الإسكندرية لاحقاً) بأن فكرة الثالوث المقدس تدعو لأن المسيح إلها لا يقل عن الآب وهو مساو له فى الجوهر، وتم عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥م بحضور رجال الدين من أنحاء العالم المسيحى برئاسة الإمبراطور قنسطنطين الكبير لحسم هذا الجدل، وانتهى الأمر بترجيح كفة اثناسيوس ، ومع ذلك لم ينتهى الجدل وظل يتجدد من آن لآخر لقرون تالية بسبب تداخل الدين مع السياسة . انظر:

Sozomen: The Ecclesiastical History of Sozomen , "comparising History of The Church From 324 To A. D. 440" , Trans. by Edward Walford M. A. , London , 1855, pp. 43- 45;

البحر المتوسط –بشقيه فى الشمال الشرقى والجنوب الشرقى– فى مصر والشام وأسيا الصغرى، أما فى الجنوب الغربى للبحر المتوسط فيقبع الشمال الأفريقى فى مذهبه الدوناتى . ومن هنا كان المجمع الكنسى العالمى الأول فى نيقية ٣٢٥م لتوحيد المذاهب المختلفة فى "قانون الإيمان النيقى" Nicene Creed وهو مجمع ترأسه ودعم قراراته الإمبراطور قنسطنطين[١٥] وهو رجل ذو خلفية عسكرية ليس لديه درجة استيعاب فلسفى للجدل اللاهوتى أوالعقائدى –الذى مازالت بعض أفكاره لم تحسم بعد– وعلى الرغم من احراق كتب الآريوسيين ونفي قائدهم إلا أن هناك حالة من الشعور بالظلم بسبب تضارب سياسة الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين تجاه كنيسة الاسكندرية سواء بالعزل أو التعيين كما حدث مع أثناسيوس وهو الشارح الاعظم والمدافع عن قانون الإيمان النيقى الذى أقره قنسطنطين من قبل، أو حتى حينما عمد قنسطنطين وهو على فراش الموت على يد يوساب أسقف نيقوميديا Eusebius of Nicomedia (ت.٣٤١م) الأريوسى المذهب قلباً وقالباً [١٦] فأعقب مجمع نيقية الكنسى سلسلة من الخلافات المذهبية التى أخذت مسميات أو صبغة دينية مثل أنصاف الآريوسيين أو الصراع الكريستولوجى أو فلنقل صراع الهوموسية والآنومية [١٧]، لكنها فى جوهرها ناتجة عن رغبة الأباطرة فى إدخال الديانة المسيحية تحت العباءة الإمبراطورية .

رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة " أثناسيوس"، ج٢، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٠م،ص ٤١– ٤٣، ٦١–٦٢ .

[١٥] Sozomen: op.cit., pp. 43- 45.

[١٦] Socrates Scholasticus : op. cit, p. 79; Sozomen: op.cit. ,PP. 88 , 104.

[١٧] مصطلح الهوموسية ظهر فى مجمع نيقية ٣٢٥م ويعنى " مساواة الابن فى الجوهر مع الآب" أما مصطلح الآنومية فيعنى "إنكار الشبه بين الآب والابن فى الجوهر .
رأفت عبد الحميد: مرجع سابق ، ص٤١–٤٣.

والمؤلم فى الأمر أنه حتى بعد اعتراف الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩-٣٩٥) بالديانة المسيحية كدين رسمى وحيد للإمبراطورية تحولت فكرة خلط الدين بالسياسة إلى صورة قمعية ، وبرغم أن البحر المتوسط أصبح بحراً مسيحياً، إلا أن شعوب البحر المتوسط المسيحية لم تشعر بالسلام، لأن وجهة نظر الإمبراطور فى "المسيحية العالمية" التى تتيح له إخضاع شعوب البحر المتوسط فى ظل كنيسة واحدة لن تتوافق مع فكرة "المسيحية المحلية" التى رأت فيها الشعوب المقهورة إحدى صور المقاومة السلمية ؛ كما أن فكرة استناد الإمبراطورية الرومانية على ادعاء كنيسة روما الكاثوليكية للسيادة والزعامة علي كنائس العالم فيما يعرف "بالنظرية البطرسية" ، تم فيها تجاهل حقيقة أن الشعوب المقهورة كانت إما وثنية أو دوناتية [١٨] أو آريوسية أو

[١٨] هى حركة أدت لانفصال كنيسة شمال افريقيا وتحديدا ما يعرف حاليا بتونس والجزائر عن الكنيسة الكاثوليكية ، وقد اشتقت اسمها من دوناتس العظيم Donatus Magnus (ت. ٣٥٥م) وظهرت الحركة بسبب ارتداد بعض المسيحيين وقيام بعض رجال الدين بتسليم الكتاب المقدس والسماح باقامة بعض المراسم الوثنية داخل الكنائس كدليل على ولائهم للإمبراطورية فى فترة الاضطهاد التى عاصرت حكم الامبراطور دقلديانوس خوفاً من القتل ، ولكن بعد اعتراف الامبراطور قنسطنطين بالديانة المسيحية كدين داخل الدولة بمقتضى مرسوم ميلان عاد رجال الدين إلى المسيحية مرة أخرى ، ولكن دوناتوس رفض عودتهم للكنيسة مرة أخرى إلا بعد تعميدهم مرة أخرى لكونهم فقدوا ايمانهم ، وقد تشددت الكنائس الدوناتية فى الشمال الأفريقى وانشقت عن ارادة الكنيسة الكاثوليكية فى روما التى كانت متسامحة مع العائدين للكنيسة ، ورفعت الدوناتية شعار " ان من يتلقى الإيمان من غير المؤمنين كمن يتلقى الإثم لا الإيمان " ، وفى حقيقة الأمر تحولت الدوناتية إلى حركة ثورية للشمال الأفريقى ضد الامبراطورية أكثر من كونها هرطقة مذهبية وجدت تربة خصبة فى شمال افريقيا بين البربر والوندال . انظر :

Saint Augustine of Hippo: Answer to the Letters of Petilian, the Donatist bishop of Cirta , book first , Chap. 4 , 5 , in The Works of Aurelius Augustine: Writings in connection with the Donatist controversy , tran. by Marcus Dods , vol. 3 , T. & T. Clark, 1872 , pp.234- 235 .

أرثوذكسية وحتى الأرثوذكسية فى الأسكندرية أصبحت مختلفة عن الأرثوذكسية فى القسطنطينية بفعل مذاهب متنازعة فى أهم أسس الديانة المسيحية وهى الكريستولوجى .

بيد أن رغبة الإمبراطور البيزنطى فى رفع مرتبة كنيسة القسطنطينية بين الكنائس الرسولية هى أولوية استراتيجية تم تحقيقها فى مجمع القسطنطينية ٣٨١م ، حينما تم رفع كنيسة القسطنطينية للمركز الثانى بعد كنيسة روما بحجة أن القسطنطينية هى روما الجديدة والعاصمة الإمبراطورية وهو ما لاقى معارضة شديدة من أسقف الاسكندرية، لينتهى الأمر بشكل حاسم وقمعى فى مجمع خلقدونية المسكونى الكنسى حينما أعاد ترتيب كنائس العالم على النحو التالى: كنيسة روما، كنيسة القسطنطينية ومن بعدهما كنيسة الأسكندرية ثم أنطاكية ثم أورشليم ؛ وهو ما جعل كنيسة الأسكندرية تنسحب اعتراضاً على قرارات المجمع الكنسى وتصفه ب "المؤامرة الكبرى" خاصة بعد أن تم ممارسة ضغوط شديدة على كنيسة روما حتى لا تبدى اعتراضها على تخفيض مرتبة كنيستى الأسكندرية وأنطاكية [١٩]. ويلاحظ هنا أن قرارات مجمع القسطنطينية الأول أو مجمع خلقدونية الكنسى ادعت السمو لكنيسة القسطنطينية لكونها "روما الجديدة" وعاصمة الإمبراطورية تماما كما كانت كنيسة روما لها السيادة لكونها روما القديمة عاصمة الإمبراطورية الأولى، دون أى إشارة للنظرية البطرسية أو أى نظريات أخرى تدعم سيادة كنيسة روما، وهو ما يجعل موافقة كنيسة روما تحت وطأة التهديد بفقدان امتيازاتها الدينية لكونها لم تعد عاصمة الإمبراطورية الرومانية آنذاك.

اسحق عبيد الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، تقديم جورج شحاته قنواتى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٩٦– ٩٩ .

[١٩] The First General Council of Constantinople , 381 A. B. Canon: 3 ; The General Council of Chalcedon, 451 A. B. Canon : 28 ; Evagrius Scholasticus: op.cit., p.301.

وبناء على ما سبق أصبح هناك صدام مباشر مع قرارات مجمع نيقية الكنسى حينما جعل سيادة كنائس العالم المسيحى لكل من كنائس روما والأسكندرية وأنطاكية بشكل خاص وقد أقر مجمع نيقية الكنسى الأول بذلك امتيازات تاريخية تأسست على اعتبارات جغرافية[٢٠] – فكل كنيسة رسولية توسعت بفعل الانتشار الجغرافى للعقيدة المسيحية وتكونت الهرياركية الكنسية لها بشكل تلقائى– وهو ما يجعل كنائس الشعوب المقهورة الخاضعة للإمبراطورية فى الشرق تتسيد على كنيسة العاصمة ؛ وبذلك لن تكون فكرة "المسيحية المحلية" داعمة لتسلط الإمبراطورية ، فكنائس الإسكندرية أو أنطاكية لديهم جميعاً شعور بتصدر وتسيد المشهد اللاهوتى والعقائدى لكونهم كنائس أنشأت على يد الآباء الرسل، فكان لزاماً على الإمبراطور البيزنطى إيجاد مكاناً مرموقاً لكنيسة القسطنطينية –عاصمة الإمبراطورية– بين كنائس الشرق العريقة للآباء الرسل .

أثر البرابرة الجرمان على وحدة البحر المتوسط

لقد تعرضت وحدة البحر المتوسط لإختبار أظهر وجود تناقض غريب بين فكرة الوحدة الدينية والوحدة السياسية عند الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير الذى وصفته إحدى المصادر بأنه "عاشق السلام" ؛ وذلك بعد عقد معاهدة للسلام عام ٣٨٠م مع الملك القوطى أثاناريك Athanaric (٣٦٩– ٣٨١م) [٢١] الذى وصفه قائلاً: " حقا إن الإمبراطور إله على الأرض ومن يرفع يده ضده مذنب بحق نفسه ودمه ". وجدير بالملاحظة أن الإمبراطور ثيودوسيوس

---

[٢٠] The First General Council of Nicaea 325 : Canons. 4 , 5, 6 .

[٢١] هو ملك للقوط الغربيين كان وثنياً معتزاً بعقيدة أسلافه ، قام بمحاربة الإمبراطورية الرومانية فى عهد الإمبراطور فالنز، كما حارب الهون، عرف بعدائه للديانة المسيحية على الرغم من اعتناق القوط الغربيين للمسيحية الآريوسية فى عهده، لكنه اضطهد المسيحيين ، ولكن بسبب ضغط الهون اضطر للتصالح مع الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير عام ٣٨١م لكنه سرعان ما تم اغتياله فى نفس العام . انظر:
Sozomen:op. cit. , pp. 305- 306 .

برغم استماتته لتحقيق الوحدة الدينية ، إلا أن قرار تقسيم الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م) فى الشرق وهونوريوس Honorius (٣٩٥- ٤٢٣م) فى الغرب بعد وفاته عام ٣٩٥م ، قد أضعف وحدة الامبراطورية بتقسيمها ونطوى ذلك القرار على التقسيم الفعلى لحوض البحر المتوسط إلى شرق وغرب، خاصة أن أركاديوس وهونوريوس أخذا يضعفان الدولة عن طريق انفاقهما ببذخ فى مظاهر الترف والإسراف بينما يقطرون على حلفائهما القوط ويحرمونهم من الهدايا ويزدرون شجاعتهم [٢٢]، ليتبين لنا أن فكرة التقسيم نفسها أجهضت الوحدة المزعومة لأنها قسمت الإمبراطورية أو فلنقل البحر المتوسط إلى شرق أرثوذكسى وغرب كاثوليكى لكل منهما حاكم منفصل ، مع الأخذ فى الاعتبار تواجد عناصر بربرية على المذهب الآريوسى فكان الانفصال سياسياً ودينياً معاً .

قد يرى البعض أن تقسيم البحر المتوسط إلى شرق وغرب كافياً وحده لخلق الانفصال لكن الإمبراطور الغربى هونوريوس لم يكتف بذلك وقام برد فعل يعزز الانقسام ؛ حينما أرسل إليه ملك لقوط الغربيين سفارة يطلب منه السماح بأن يعيش القوط الغربيون بسلام فى إيطاليا وأن القوط الغربيين سيعيشون فى سلام مع مواطنى إيطاليا حتى إن من يراهم سيعتقد بأنهم جنس واحد وإلا فالمنتصر منهما هو الذى سيبقى فى روما ، لكن هونوريوس أجاب بالسماح لألاريك Alaric I (٣٩٥- ٤١٠م) ملك القوط الغربيين بالتوجه نحو إسبانيا وبلاد الغال ليستقر بها لكن القدر لم يمهله طويلا إذ توفى وجاء خلفه الملك أتولف Athaulf (٤١١- ٤١٥م) الذى تمكن من الضغط على الوندال ليعبروا إلى الشمال الأفريقى بينما يستقر القوط الغربيون فى غالة وإسبانيا [٢٣] ليصبح غرب البحر المتوسط مقسماً بين روما بمواطنيها الكاثوليك وبين القوط

[٢٢] Theodoret of Cyprus: Ecclesiastical History of Theodoret , in Greek Ecclesiastical Historians , Samuel Bagster & Sons , London , 1843 , book 5 . Chpt. 25 , p. 326 ; Jordanes: op.cit., pp.91- 92.
[٢٣] Jordanes :op.cit., pp. 93 – 94, 96.

الغربيين الآريوسيين في بلاد الغال وإسبانيا، وبين الوندال في شمال أفريقيا التى قسمت بين أهل البلاد من الدوناتيين والوندال الأريوسيين.

وكان المسمار الأخير فى نعش الوحدة الدينية المزعومة لحوض البحر المتوسط ظهور الحركة الدوناتية التى عصفت بالشمال الأفريقى ، ويرى المؤرخ إسحق عبيد أن الحركة فى جوهرها صورة من صور التمرد لمنطقة نوميديا (الجزائر) وقرطاج (تونس) فى غرب البحر المتوسط وهناك من جعلها إحدى صور الثورة والمقاومة المنظمة للإمبراطورية بعامة وللكنيسة الكاثوليكية بخاصة ، بدليل ما ورد فى كتابات أوغسطين الكبير فى وصف تعصب الدوناتيين ورغبتهم فى عدم التوحد مع الكنيسة الكاثوليكية وأنهم أكثر حماقة من أسلافهم فى معالجة نقاط الخلاف وأنه حينما يتحدث عن السلام فإنهم – أى الدوناتيين – يتحدثون عن الحرب [٢٤]، بينما المتأمل لحوض البحر المتوسط فى ظل حركة الدوناتية سيرى أن حركات الهرطقة من وجهة نظر الإمبراطورية جعل حوض البحر المتوسط مهلهل جغرافياً ودينيا فما بين الآريوسية والمينوفيزيتية والنساطرة[٢٥] واليعاقبة والملكانية والأرثوذكسية المتنازع

---

[٢٤], Saint Augustine of Hippo: Answer to the Letters of Petilian, the Donatist bishop of Cirta , book first , Chap. 1, , pp. 231- 232.
اسحق عبيد : الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، ص ٩٩- ١٠٠ .

[٢٥] أطلق على مذهب النساطرة هذا الاسم نسبة إلى نسطوريوس Nestorius أسقف القسطنطينية (٤٢٨- ٤٣١م) وقد توفى ٤٥٠م ، وقد ابتدع مذهب النساطرة وأهم مبادئه وجود طبيعتين للسيد المسيح طبيعة إلهية وهى الكلمة وطبيعة بشرية وهى يسوع (عيسى عليه السلام) ولا يمكن أن يتحدا ، وكذلك من الخطأ أن يطلق على السيدة مريم العذراء أم الإله لأنها لم تلد إلها بل إنساناً ، وهو عكس مذهب الطبيعة الواحدة التى تصدرت كنيسة الإسكندرية بقيادة ثيوفيلوس Theophilus of Alexandria (٣٨٤-٤١٢م) ومن بعده كيرلس الأول بطريارك الاسكندرية Cyril of Alexandria (٤١٢- ٤٤٤م) وديسقورس بطريارك الاسكندرية Dioscorus I of Alexandria (٤٤٤- ٤٥٤م) للدفاع عنه سياسياً ولاهوتياً ، وتم مناقشة آراء نسطور فى مجمع أفسوس عام ٤٣١م ، ومجمع

عليها بين الإسكندرية والقسطنطينية فى الشرق وعلى الجانب الآخر هناك الدوناتية التى ظلت أحد مظاهر المقاومة لبلاد الشمال الأفريقى لإمبراطورية ولكنيسة روما وهى مقاومة استمرت حتى الفتح الإسلامى للشمال الأفريقى والأندلس .

استمرت هيبة روما فى السقوط تحت أقدام البرابرة الجرمان حينما أرسل اتيلا Attila (٤٣٤- ٤٥٣م) ملك الهون مبعوثه إلى روما وارسل أخر إلى القسطنطينية برسالة واحدة إلى امبراطور فالنتيان الثالث Valentinian III (٤٢٥- ٤٥٠م) مفادها : " إن سيدى وسيدك آتيلا يأمر أن تعد القصر ليكون فى استقباله" أو حينما ذهب البابا ليو الثالث بنفسه ليستجدى آتيلا ملك الهون حتى لا يجتاح روما [٢٦] ، مما يعد مؤشراً خطيراً على أن الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية فى الشرق لم يعد له سلطة على كنيسة روما فى الغرب ، الأمر الذى استدعى ضرورة البحث عن بديل لمؤسسة دينية تدعم الإمبراطور فى الشرق لأنه حتى الشعوب التى استوطنت غرب البحر المتوسط من البرابرة الجرمان كانت إما آريوسية أو دوناتية وهى مذاهب مهرطقة أضعفت موقف كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية وأغرقهما وسط بحر متلاطم من المذاهب المهرطقة .

لقد تم انتشال كنيسة روما من تلك الحالة فى عهد كلوفيس Clovis I (٤٨١- ٥١١م) حينما اعتنق المسيحية الكاثوليكية لتصبح دولة الفرنجة كاثوليكية المذهب ، وهو ما جنت البابوية ثمرته فيما بعد بإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب بعد الاستقواء بالإمبراطور الكارولنجى شارلمان

خلقدونية ٤٥١م ، وبرغم إدانة أفكار نسطوريوس إلا أن أفكاره استمرت فى الانتشار فى موطنه بأنطاكية وبلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية وبلاد فارس. انظر :
Evagrius Scholasticus :op.cit. , pp.257 , 263 , 299 .

[٢٦] John Malalas: Chronicle of John Malalas, "Book 8 - 18, Trans. by Matthew Spinka & Glanvlle Downey, University of Chicago Press,Chicago, Illinois, 1940, P. 80 ; Jordanes :op.cit., p.113.

(٢٧). وهكذا بفعل القمع والتآمر وحسابات المصلحة السياسية التى اختطفت المشروعية والمكانة الروحية الدينية اختطافاً مؤلماً من كنائس شرق البحر المتوسط إنهارت فكرة الوحدة المسيحية لحوض البحر المتوسط بعد أن انهارت قبلها الوحدة السياسية لبحر الروم .

وهكذا أصبحت أملاك الإمبراطورية الرومانية غرب البحر المتوسط بشقيه الشمالى والجنوبى أشبه بقطعة الفسيفساء سياسيا ودينياً تشكلت على يد قبائل رعوية محتلة أريوسية ودوناتية ؛ فالقوط الشرقيون فى إيطاليا وبعدهم اللمبارد فى شمال إيطاليا والقوط الغربيون فى إسبانيا والفرنجة فى فرنسا والوندال فى شمال أفريقيا إلخ.... بينما أهل البلاد الأصليون كانوا مختلفيين عنهم فى العرق والمذهب الدينى فى جولة من الصراع التى شرحها جمال حمدان – كما سبق الذكر– يمكن تسميتها بسطوة السهل على البحر .

أثر سياسة الإمبراطور جستنيان الدينية على وحدة حوض البحر المتوسط

مرت الامبراطورية البيزنطية بفترة من الخمول انتهت بمحاولة الإمبراطور جستنيان Justinian I (٥٢٧– ٥٦٥م) استعادة ممتلكاتها فى حوض البحر المتوسط ، فكانت الامبراطورية كمن قام من صحوة الموت ، ورغم استعادة جستنيان لكثير من ممتلكات الامبراطورية فى إيطاليا وأجزاء من اسبانيا وجزر البليار وشمال أفريقيا إلا أنها كانت سيطرة مؤقتة انتهت بوفاة صاحب الفكرة بعد أن استنزف مقدرات الإمبراطورية وخزاناتها العامرة، سواء بسياسة "شراء السلام" أو الحروب الاستردادية – مجازاُ حسب قناعات جستنيان–، وعلى صعيد تأثيرات سياساته الدينية فقد خلف وراءه احتقاناً دينياً بين أصحاب المينوفيزيتية وأصحاب الطبيعتين، فى سياسة مترددة دينيا لم

(٢٧)Gregory of Tours : The History of The Franks , trans. & Introduction by. Lewis Thorpe , Penguin Books , first Published , 1974 , Book, II, Chapt. 31; Einhard : The Life of Charlemagne , Tran. By Samuel Epes Turner , Harper brother , New York , 1880 , p. 65 – 66 .

تخل من تدخلات زوجته ثيودورا (٥٢٧- ٥٤٨م) المتعاطفة مع المينوفيزيتيين، أو قيامه بمصادرة ممتلكات الكنائس الأريوسية ، معلناً أنه من الغباء تحمل العذاب من أجل معتقدات مهرطقة وأن من يخضع لحكمه لن ينجوا من العقوبة والقانون حتى وإن ادعا بأنه مسيحى[٢٨]، وهى سياسة انتقامية ترى الباحثة أنها جعلته لا يقل دمويه عن ملوك الوندال الذين اضطهدوا الكاثوليك، خلاصة القول أن سياسات الإمبراطور جستنيان ، وهو ما شهد به المصدر المعاصر حينما وصف حال رعايا الإمبراطورية الذين نجوا من الطاعون الذى حل بالعالم ، لكنهم لم ينجوا من جستنيان فمثل هذا الرجل كعقوبة ارسلتها السماء على الجنس البشرى فى الأرض لم تترك أحداً إلا وأصابته [٢٩] .

نستخلص مما سبق أن وحدة البحر المتوسط فى الشمال الأفريقى كانت قد انقسمت بفعل القوة البحرية لأسطول الوندال الرابض فى قرطاج والمسيطر على الشمال الأفريقى بالإضافة إلى غرب المتوسط آنذاك، مما جعل التواصل بين غرب البحر المتوسط وشرقه صعباً ومحفوفاً بالمخاطر وهو ما أكده المؤرخ نورمان باينز، بالإضافة إلى أن الاضطهاد الدينى وأعمال القتل الذى لحق بالكاثوليك فى غرب وشمال أفريقيا على يد الوندال أو القوط الغربيين لصالح مذهب الآريانيين – الآريوسيين – وهو ما أكده المؤرخ جريجورى التوري[٣٠]، أورث الغرب الكاثوليكى حقداً وثأراً ظهر جلياً حينما استرد القائد بلزاريوس أراضى الوندال فى الشمال الأفريقى، فبادرت

---

[٢٨] بركوبيوس : التاريخ السرى لبركوبيوس "حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا" ، ترجمة صبرى أبو الخير، الطبعة الإولى ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية ، ٢٠٠١م ، ص ٨٣ – ٨٤ .

[٢٩] المصدر السابق: ١١٠ – ١١٢؛

Evagrius Scholasticus : op.cit. , pp. 400, 404 , 411- 412.

[٣٠] Gregory of Tours : op.cit., Book II , Chapt. 2 , 3 ; Norman. Baynes : op. cit. pp. 56 – 57.

الإمبراطورية إلى اضطهاد الآريوسيين – كما سبق الذكر– لتقع المنطقة فى موجات متعاقبة من الاضهاد والتمزق الدينى فى واحد من أخطر وأغنى اقليم فى البحر المتوسط .

أثر حركة الفتوح الإسلامية على وحدة البحر المتوسط

حتى الآن لا توجد مشكلة من وجهة النظر الغربية لأن البحر المتوسط كان لا يزال آنذاك "بحر الروم" وإنما المشكلة تكمن في ظهور الإسلام حيث تحول البحر المتوسط إلي شمال مسيحي وجنوب إسلامي ، وقد كان انتصار المسلمين فى معركة ذات الصوارى ٦٥٤م /٣٤هـ إعلاناً واضحاً عن ميلاد قوة المسلمين البحرية التى استعرضت سطوتها على شرق البحر المتوسط الذى امتزجت مياهه بدماء البيزنطيين وقد امتدت تلك السطوة إلى الجناح الغربى فى عهد الأمويين ، وحينما وصل المسلمون لأسبانيا بعد فتح جزر قبرص ورودس وكريت ومالطة وصقلية ورودس وسردينيا وكورسيكا والبليار[٣١].

عند هذا المنحنى يلتقط برنارد لويس الفكرة المنادية بخطورة الإسلام على وحدة البحر المتوسط لكونه مصدر تهديد دائم حيث قال : بركان خامد وجيب يضم مسلمين يذكرونهم بما يخافون منه حيث يقول برنار لويس : "منذ ألف سنة منذ أول رسو إسلامي في أسبانيا وحتى الحصار التركي لفيينا كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام، فالإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب الأوروبي موضع شك" [٣٢] .

---

[٣١] أبوالعباس أحمد بن يحى البلاذرى: فتوح البلدان ، تحقيق وشرح وتعليق عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ، ٣٢٩– ٣٣٠ ؛

Theophanes : The Chronicle Of Theophanes , Trans. By Harry Turtledove, University of Pennsylvania Press , Philadelphia , 1982 , pp.43 , 45 .

[٣٢]Bernard Lewis : Islam and the west, Oxford University Press , Oxford , 1993, p. 13.

لكي نضع الأمور في نصابها نطرح علامات استفهام هى : هل ألحق المسلمون ضررا بوحدة البحر المتوسط الدينية أكثر مما ألحقته الإمبراطورية الرومانية أو أكثر مما ألحقه البرابرة الجرمان بتلك الوحدة ؟ أو أكثر مما ألحقه أباطرة بيزنطة مثل الإمبراطور جستنيان وما قام به من سياسات فى شرق وغرب البحر المتوسط ؟ سنجد أن الإجابة تتركز في أن الإسلام حينما عبر إلي أسبانيا وجد شرقاً بيزنطياً يوناني الطابع وغرباً رومانياً لاتينياً اجتاحه قبلهم الهون والقوط الشرقيين والغربيين والوندال وهم برابرة الجذور والأصل لم يكن لهم حدود ثابتة أغلبهم هاجر كعادة البرابرة الرحل ليبحثون عن المراعي والسهول الخصبة فلم يعرفوا الحدود الثابتة إلي أن اجتاحوا روما واسقطوا إمبراطوريتها الغربية ، واستوطنوا أوروبا واندمجوا بين أهلها وجعلوا من أنفسهم سادة علي أهل البلاد أي أنهم استبدلوا احتلالاً بربرياً باحتلالاً بيزنطياً ، وبهذا ترى الباحثة أنه لا يمكن وصف الفتح الإسلامى لشرق وشمال وغرب المتوسط بالغزو أو الاحتلال لأنه لم يأخذها من أهل البلاد الأصليين ، بينما مصطلح حروب الاسترداد فى إسبانيا هو مصطلح يدور فى فلك وجهة النظر للمؤرخيين الغربيين لأن من انتزعها من المسلمين ليسوا أهل البلد الأصليين [٣٣] .

---

[٣٣] تقتضى الأمانة العلمية الاشارة إلى مناقشة علمية مع الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران (رحمه الله) أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية حول ضبط المصطلحات فى تعريف الفرق بين الفتح والغزو والاسترداد سواء من وجهة نظر المؤرخين المسلمين أو الغربيين ، وحينما أجبت بأننى أري أنه من الظلم القبول بمصطلح حروب الاسترداد فى إسبانيا لأن من انتزعها من المسلمين ليسوا أهل البلد الأصليين بل هم بقايا أحفاد القوط الغربيين والوندال فرد على أستاذى كدليل على أن المصطلح الواحد يستخدمه كل طرف حسب وجهة نظره ولأن الغرب هو من كتب تاريخنا فإنه يضع المصطلحات بشروطه ورؤيته ويجب على المؤرخ المسلم والعربى أن يعيد النظر فى المصطلحات وفقاً لرؤيته هو لا رؤية الغرب وضرب لى مثلا بأننى ان كنت لا اعترف بمصطلح حرب الاسترداد " إذا فإن حركة الفتوح الإسلامية فى الشام يمكننا أن نطلق عليها

ترتب على ما سبق ظهور اشكالية للمؤرخين فى العالم الإسلامى حول شرعية حركة الفتوح الإسلامية من وجهة نظر بعض المؤرخيين الغربيين ، مثل برنارد لويس يؤكد أن كلمة الجهاد عند المسلمين مقرونة دائما بعبارة "فى سبيل الله" وأنهم حملوا عبء الحرب المقدسة ضد غير المسلمين ، وألزموا أنفسهم برفع السيف حتى يصبح كل البشر مسلمين، وأن مصر وشمال أفريقية رغم كونهم مسيحيين اندمجوا مع دولة المسلمين وأصبحوا يشكلون جبهة مساندة وداعمة لاستمرار الفتوحات الإسلامية التى وصلت إلى المغرب، وما لبثوا أن تلقوا الدعوة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) وما أن وصلوا إليها حتى استمروا فى حمل السيوف ومحاولة غزو جيرانهم مراراً وتكراراً [٣٤] .

جدير بالملاحظة أن السرد التاريخى لبرنارد لويس ينطوى على تلميحات ودعاية مغرضة تبناها قبله مستشرقو الغرب ومنهم هنرى بريين صاحب نظرية وحدة البحر المتوسط ، وغيرها من الإشكاليات التى يتم الترويج لها مثل "نشر الإسلام بحد السيف" أو "جمع الجزية من غير المسلمين" وتعمد الخلط بين الإسلام كديانة لها مبادئ وتعاليم، وبين المسلمين كبشر منهم من يحسن أو يسئ التصرف، فأصبح الدين يؤخذ بجريرة المسلمين، وتصوير الحكم الإسلامى كأي احتلال جاء ليفرض الضرائب (الجزية) ويستنزف الشعوب وتناسوا أن الإسلام لم يفرضها علي امرأة أو طفل أو رجل دين أو فقير مهما اختلفت ديانته وأنها إذا ما تعمقنا فى مغزاها لوجدنا أنها تماثل الزكاة عند المسلمين إلى حد كبير فهى لم تفرض إلا على الرجل المسلم، فالجزية والزكاة تدفع لبيت المال أو إلي المحتاجين إليها ؛ فكانت القضية هنا عادلة مقارنة بما كانت تدفعه الشعوب المقهورة للرومان ولورثتهم

حرب استرداد لأن العرب الفاتحين المنحدرين من الأصول الكنعانية هم من استردوها من المحتلين البيزنطيين ومن قبلهم الرومان " .

[٣٤] Bernard Lewis: op. cit. , pp. 9 – 11 .

من البيزنطيين . فحينما جاء الإسلام لم ينتزع أرضا من أصحابها بل أقر أهلها علي حالهم وساوي بين الجميع أمام الحكم الإسلامي .

حقيقة الأمر إن جاذبية الإسلام بمعاييره الأخلاقية ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية تكمن فى أنه دعا البشر كبشر لا كأعضاء في جماعة عرقية أو قومية " ؛ لهذا سنجد طارق بن زياد وهو رجل بربرى الأصل قائداً للمسلمين وفاتح الأندلس بينما فشل العرب فى فرض سيطرتهم على المغرب بعد وفاة عقبة بن نافع بسبب معاملة البربر بنزعة العصبية العربية [٣٥] ، وما أوقف حركة الفتوح الإسلامية وأسقط بعدها الأندلس غير العصبية والتعصب، ويبدوا أن أنصار الصراع بين الحضارات هم من يعززون الفكرة المنادية بأن الإسلام هو من فتت وحدة حوض البحر المتوسط وأن المسلمين نشروا الإسلام بحد السيف وغيرها من الاتهامات المجحفة التى ستدفع الآخر إلى الاعتقاد بأن الروح الصليبية لم تنته بنهاية العصور الوسطي (وهو الفرق بين الحرب الصليبية والروح الصليبية).

وحدة البحر المتوسط فى ميزان علاقة الشرق والغرب

لقد كان هنرى بريين عراباً للفكر الاستعمارى ترك منهجاً للتعامل مع تاريخ البحر المتوسط فى العصور الوسطى جعل بعض المفكرين يسيرون على نهجه مثل صامويل هنتجتون صاحب كتاب صدام الحضارات ، وهو ما يظهر جلياً في سؤال يضعه ويجيب عليه حين قال: "أين تنتهي أوروبا ؟ أوروبا تنتهي حيث تنتهى المسيحية الغربية ويبدأ الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية، هذه هى الإجابة التى يريد أن يسمعها الغرب، والتى كرسها مثقفون وقادة سياسيون كثيرون ، فهناك انقسام ثقافى بين أوروبا المسيحية

[٣٥] أبى العباس أحمد ابن محمد بن عذارى(ت.٧١٢هـ) : البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، المجلد الأول ، تحقيق وضبط وتعليق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، تونس ، ٢٠١٣م ، ص ٧٠- ٧١ .

الغربية وأوروبا ذات صبغة شرقية أرثوذكسية ثم إسلامية (كموروث من الدولة العثمانية) وأن الفصل الدينى بين الكنائس الغربية تلقت تعاليمها من كنيسة روما مباشرة، أو كنائس شرقية استمدت تعاليمها من كنيسة القسطنطينية (بيزنطة)" [٣٦].

إن المتأمل فى الحد الفاصل بين بيزنطة والإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد الإمبراطور شارلمان وحتى نهاية العصور الوسطى سيجده هو ذاته الحد الفاصل الذي قسم الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي إلي إمبراطورية بيزنطية شرقية وإمبراطورية رومانية غربية ، وتتفق الباحثة مع آراء وجدت فى القضايا الدينية التى اشتعلت بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية منذ صراع مناهضة الأيقونات ومشكلة تعيين البطريارك البيزنطى فوتيوس بطريارك القسطنطينية Photios I of Constantinople (٨٧٧ – ٨٨٦م) لترسيخ الانقسام [٣٧] . ليتبين لنا أن انقسام جناحى البحر المتوسط الشرقى والغربى نتيجة منطقية ؛ فقد بدأ انقسام سياسى وجغرافى وانتهى انقسام دينى حضارى ، تجلى فيها نظرة بيزنطة الدونية لملوك وأباطرة الغرب الأوروبى وأصولهم البربرية ، أو فى نظرة كنيسة روما الفوقية المستمدة من ادعائها السمو البابوى بموجب النظرية البطرسية كما دعمته بالاتهام الدائم لكنيسة القسطنطينية بالهرطقة .

لعل المدقق فى المشاريع البابوية لتوحيد كنيستى روما والقسطنطينية التى توالت منذ تخلصت بيزنطة من احتلال اللاتين للقسطنطينية على يد

---

[٣٦] صامويل هنتنجتون : صدام الحضارات "إعادة صنع النظام العالمى" ، ترجمة طلعت الشايب ، تقديم صلاح قنصوه ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م ، ص ٢٥٨– ٢٥٩ .

[٣٧] اسحق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ٨٦٩–١٢٠٤م ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٤ ، ٦ ؛
Schroeder, H.J : Disciplinary Decrees of The General Councils ," The Second Council of Lyons 1274" , B. Herder Book CO, London , 1937, p.324.

ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeologus (١٢٥٩-١٢٨٢م) عام ١٢٦١م، مثل مشروع البابا جريجوري العاشر Gregory X(١٢٧١- ١٢٧٦) فى مجمع ليون الثانى[٣٨] عام ١٢٧٤م سيجد أن فشل توحيد الكنيستين كان تجسيداً لصراع السيطرة علي أرض ترمز لهوية أو لحق ديني أو تاريخي دفع ثمنه مسلمو منطقة البلقان أكثر من مسيحييها حين أوقعهم حظهم العاثر على خط تقسيم مشتعل بنيران الحقد التاريخي بين شرق وغرب البحر المتوسط .

خلاصة القول إن المؤرخ هنرى بريين ومن سار على هديه فى الغرب حينما ادعوا تقسيم المسلمين للبحر المتوسط إلى شمال وجنوب، أضافوا تقسيما آخر وهو شرق وغرب البحر المتوسط ،ليتناسى بذلك الغرب الأوروبي ما قدمه المسلمون للإنسانية في أي مجال حضاري ولا يتذكرون سوي ما يتلاعب بمشاعر الشعوب لخلق عدو وهمي تنشغل به شعوبهم، وبرغم أن العصور الوسطي كانت هى عصور الإيمان حين سيطر الدين علي الشعوب، إلا أن الدين في حد ذاته لا يشكل عائقاً للتواصل فالمسيحية والإسلام يخرجان من مشكاة واحدة ، لكن رجال السياسة والكنيسة فى العصور الوسطى أرادوا نيل مكاسب شخصية أو سياسية في صراعهم مع الإمبراطورية ، فوجهوا الكراهية الكامنة في نفوس شعوب الغرب الأوروبي وشمال البحر المتوسط إلي أقرب جار لهم وهم المسلمون ؛ فكانت الحروب الصليبية برغم أن المسلمين جنوب البحر المتوسط لم يعارضوا الاتصال مع الشمال المسيحي سواء بالتجارة أو الاتصال الحضاري .

---

[٣٨] مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م ، بحضور مندوبين وسفراء لملوك ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وميخائيل الثامن باليولوجوس الذى أراد مراوغة البابوية وإيهامها باستعداده لإعادة توحيد كنيستي روما والقسطنطينية ، فى محاولة لكسب الوقت وإقناع البابوية بالضغط على الأنجفيين الذين يهددونه بغزو القسطنطينية.

Schroeder, H.J :op. cit.., pp. 324 – 325.

لذلك علي مدعي التقسيمات الحضارية أو الصدام بين الحضارات من مؤرخى العصور الوسطى أن يعيدوا حساباتهم حتى لا يزكوا تلك الانقسامات فيكونوا ملوكا علي الهالكين ، وحتى لا تكون حركة التاريخ إعادة انتاج للصراع بين الشرق والغرب ؛ لأن كرامة الإنسان ستدفع به لأن يعيد معاركه الدموية عبر التاريخ ، ورغبته في نيل التقدير والاعتراف ستجعله دائما علي استعداد للمخاطرة بحياته من أجل كرامته ، وعلي من يزرع الفتنة أن ينتبه إلى ما يبذره من كراهية حصادها صراعا ودمارا ، والشعوب لا تنسي ، وذلك حتى يكون البحر المتوسط عامل وصل لا فصل .

قائمة المصادر الأجنبية والمعربة

Augustine of Hippo (Saint) :

- Answer to the Letters of Petilian, the Donatist bishop of Cirta , book first , Chap. 4 , 5 , in The Works of Aurelius Augustine: Writings in connection with the Donatist controversy , tran. by Marcus Dods , vol. 3 , T. & T. Clark, 1872.

Decrees of The First General Council of Constantinople 381 A. B.:

- Canon: 3 , In Schroeder H. , Disciplinary Decrees of The General Councils , Herder book , London , 1937 .

Decrees of The General Council of Chalcedon, 451 A. B. :

- Canon ,28. In Schroeder H. , Disciplinary Decrees of The General Councils .

Decrees of The First General Council of Nicaea 325 :

- Canons. 4 , 5, 6 , In Schroeder H. , Disciplinary Decrees of The General Councils .

Einhard *:*

- The Life of Charlemagne, Tran. By Samuel Epes Turner, Harper brother , New York , 1880.

Evagrius Scholasticus :

- The Ecclesiastical History of Evagrius " History of The Church from AD 431 to AD 594, Edited and trans. by Edward Walford , Published by H.G. Bohn , London, 1854.

Gregory of Tours :

- The History of The Franks , trans. & Introduction by. Lewis Thorpe , Penguin Books , first Published , 1974.

John Malalas:

- Chronicle of John Malalas, "Book 8 - 18, Trans. by Matthew Spinka & Glanvlle Downey, University of Chicago Press,Chicago, Illinois, 1940

Jordanes:

- The Gothic History of Jordanes, Entroduction & Commentary by Charles Christopher , Princeton Universty Press, Princeton , London , 1915.

Schroeder, H.J :

- Disciplinary Decrees of The General Councils ," The Second Council of Lyons 1274" , B. Herder Book CO, London , 1937.

Socrates Scholasticus :

- The Ecclesiastical History of Socrates , Trans. & notes by Valesius , Henry G. Bohn , London, 1853.

Sozomen:

- The Ecclesiastical History of Sozomen , "comparising History of The Church From 324 To A. D. 440" , Trans. by Edward Walford M. A. , London , 1855.

Theodoret of Cyprus:

- Ecclesiastical History of Theodoret , in Greek Ecclesiastical Historians , Samuel Bagster & Sons , London , 1843.

Theophanes :

- The Chronicle Of Theophanes , Trans. By Harry Turtledove, University of Pennsylvania Press , Philadelphia , 1982.

بركوبيوس :

- التاريخ السرى لبركوبيوس "حياة الإمبراطور جستنيان وثيودورا" ، ترجمة صبرى أبو الخير، الطبعة الإولى ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية ، ٢٠٠١م.

المصادر العربية

- **(البلاذرى)** أبوالعباس أحمد بن يحى (ت. ٨٩٢م/ ٢٧٩هـ): فتوح البلدان ، تحقيق وشرح وتعليق عبدالله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٧م .
- **(ابن عذارى)** أبى العباس أحمد ابن محمد (ت.٧١٢هـ) : البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، المجلد الأول ، تحقيق وضبط وتعليق بشار عواد معروف ، محمود بشار عواد ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، تونس ، ٢٠١٣م.

المراجع الأجنبية

Allen Brent:

- The Imperial Cult and the Development of Church Order, Brill , Leiden , Boston .

Bernard Lewis:

- Islam and the west, Oxford University Press , Oxford , 1993.

David Abulafia:

- The Great Sea "A Human History of the Mediterranean", Oxford University Press, first edition, Oxford, New York, 2011.

Delisle Burns:

- The First Europe, in The Pirenne Thesis Analysis, Criticism, and Revision, ed. Alfred Havighurst , D.C. Heath &company, Boston, 1958.

Gwynaeth McIntyre:

- The Imperial cult , Brill , Leiden , Boston, 2019.

Henri Pirenne:

- Mohammed and Charlemagne, trans. from French by Bernard Miall, first Published , George Allen & Unwin LTD, London , 1939.
- Medieval Cities "Their Origins and the Revival of Trade" , Trans. by Frank D. Halsey, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 1925.

Nigel Bagnall:

- The Punic Wars "Rome, Carthage and the Struggle for the Mediterranean" , first published , Random House, London, 1999.

Norman. Baynes :

- M. Pirenne and The Unity of The Mediterranean World in The Pirenne Thesis Analysis, Criticism, and Revision, ed. Alfred Havighurst , D.C. Heath &company, Boston, 1958 .

Peter Crawford:

- Roman Emperor Zeno "The Perils of Power Politics in Fifth -century Constantinople" , first published , pen & sword Ltd. Yorkshire , 2019.

Zachary Anderson:

- The Rise of the Roman Empire, Cavendish Square Publishing, LLC, first edition , New York, 2016 .

قائمة المراجع العربية والمعربة

إسحق عبيد :

- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، تقديم جورج شحاته قنواتى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١م.
- روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤م ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

سامى خشبة : مفكرون من عصرنا ، المكتبة الأكاديمية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ٢٠٠١م.

صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات "إعادة صنع النظام العالمى" ، ترجمة طلعت الشايب ، تقديم صلاح قنصوه ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م.

فلاح حسن الأسدى: الإسلام وتكوين الغرب الأوروبى فى العصر الوسيط "نقد نظرية هنرى برين" ، مجلة كلية الآداب ، العدد ٧١ ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥م .

رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة " أثناسيوس"، ج٢، مكتبة سغيد رأفت، القاهرة، ١٩٨٠م.